هل نملك أو نكون؟

هل بات من الصعب حقاً أن يأخذ الإنسان أي أمر يسمعه، وأي وعد يتلقاه، بل أي كائن يعرفه على محمل الثقة والجد، في زمن تبدو فيه فوضى الحياة البشرية لا مدوخة وحسب، بل هادمة لكل اتساق عقلي أو نفسي أو عاطفي وجداني مهما يكن صافياً وأصيلاً؟!

ترى ما الذي يبحث الإنسان عنه في هذا العالم؟! وإن أردنا أن نذهب خطوة أبعد نحو الدقة قلنا: ما الذي يجب أن يبحث الإنسان عنه كغاية أساسية وجوهرية لحياته؟!

ويستلزم هذا السؤال أسئلة أخرى كثيرة، بل هي تكاد لا تحصى إذا ما اعتمدنا الإجابة التي كادت أو تكاد تصبح مثل البدهية أو المسلمة، وهي: أن السعادة هي ما يبحث عنه الإنسان، أو ما يجب أن يبحث عنه.

وإذاً، ما السعادة؟! وكيف تقوم في قلب الكائن وروحه؟! وعلى ماذا تقوم من مقومات ذاتية داخلية ومقومات خارجية موضوعية؟! وما نمط العلاقة بين هذه وتلك حيث تتحدد سلوكات الكائن وترتسم الحدود والمعايير لمدى السلامة والصحة النفسية عنده، ولمدى رسوخ نظام من القيم الدالة على نبل حقيقته أو فسادها كلياً أو جزئياً؟!

ما يجمع عليه الباحثون في علم النفس- المرضي منه وغير

المرضي- وأهل الفكر والفلسفة والعقائد المستنيرة، هو أن السعادة حال من الاتساق والتناغم الداخلي للكائن، حال من توازن روحه ونفسه وعقله وعواطفه ووجدانه، تخضع لها- أي لتلك الحال- حاجاته الغريزية الجسدية، وتكون الطاقات الكامنة في تكوينه تحت تصرف ما يتطلبه ذلك الاتساق، فيصير (نوره) الداخلي مرتبطاً بما في عمق هذا التكوين من (شراكة فطرية) مع الآخرين، مثلما يصير هادياً لتجربته في (الموضوع/ الخارج) حيث التجربة- أي ممارسة العيش- هي بحث تلقائي عن التفتح المستمر للشخصية في إطار من التقدم والارتقاء العام. وهنا يفصح نظام القيم عن نفسه: ناجعاً بقدر ما هو إنساني، ومكيناً بقدر ما هو غير قابل للخرق المخل.

ومجموع ذلك هو اشتراطات الحرية الحقيقية وتمظهرات تحققها. وهو لا يقوم بفرد أو فئة أو جماعة واحدة، بل يقوم بالكل الإنساني الذي هو نسيج شامل لسائر أفراد النوع وفئاتهم وجماعاتهم ومجتمعاتهم، حيث التجربة لها سمة الكلية، وحيث يصبح المجال الحيوي للنوع، والذي هو الطبيعة المرتبطة بالنظام الكوني الأشمل، ميدان التجربة وإطارها و(الشريك) الذي لا يجب إخضاعه وابتزازه وابتذاله تحت يافطة (أنسنته) بل يجب احترامه بالتفاعل معه لإغنائه تفاعلاً معافى. فما النوع الإنساني إلا ابن الطبيعة، وعقوقها سيؤدي بها عاجلاً أم آجلاً إلى نبذه!

تصوُّرٌ يوتوبيٌّ لمعنى السعادة، ولكيفيات تحققها باعتبارها غاية الوجود الإنساني وهدفه... أليس كذلك؟!

ولكن متى لم تكن اليوتوبيا هي حلم الإنسان وهدفه في سائر العصور؟! وإلى ماذا يرمي التقدم البشري، في حقيقته وجوهره،

إن لم يكن تحقيق صيغة لها على هذه الأرض، بعد أن كان أمر هذا التحقيق معلقاً بالجنة، أو بملكوت السماوات؟!

على أن ثمة سؤالاً بات يفرض نفسه بقوة منذ زمن طويل نسبياً: ما هو التقدم؟!

لو أننا وجهنا هذا السؤال الآن إلى أي متعلم على الأرض فلربما كانت الإجابة الأعم: إنه ارتقاء أوضاع البشرية بالعلم، وتطور العلم!

ولكن، كيف؟! وما العلم؟! وما وظائفه الفعلية الآن؟!

إن تشخيص ما هو قائم في الوضع البشري في هذه المرحلة، وتوصيفه كما هو واقعياً، يقاطع وينافي ذلك الذي بدأنا الكلام فيه هنا، ويضع أيدينا، بالتالي، على سر الفوضى الغريبة في ظروف المخلوقات وأحوالها حيث ينهدم كل اتساق عقلي أو نفسي أو عاطفي أو وجداني أو سلوكي أو قيمي لأفراد النوع عموماً، وتضيع صيغة السعادة المنشودة- كما أوجزناها قبلاً- ضياعاً شبه تام!!

إن بشر هذه الحقبة من تاريخ البشرية مفعمون بالتوتر والخوف والشروخات العميقة في الشخصية، وهم لذلك مضطربو السلوك، مضطربو القيم أي لنقل إن قيمهم آنية عارضة وزائفة مزعزعة... إلى آخره- رغم تطور العلم الذي لا شك في أنه إنجاز المعرفة المتفوقة بقوانين الوجود على قاعدة اختبار تجلياتها في الحقول والميادين المتعددة التي تتجلى فيها، ثم إنجاز تطبيقات تقنية تحسن أساليب العيش على هذه الأرض مثلما تحسّن كيفياته إلى اقصى الحدود الممكنة.

وما دام العلم قد وصل إلى درجة من التطور يصعب

شرحها، ونكتفي بالقول هنا: إنها عالية جداً، فلماذا إذاً هذه المفارقة بين الوضع العلمي وبين الوضع البشري الذي يعاني مما هو أسوأ بكثير من الاختلالات التي سبقت الإشارة إليها؟

إن المعرفة الصائبة بهذه المفارقة تقتضي النظر الصائب في (الوظيفة) المفروضة للتطور العلمي من قِبَل من بيدهم فرض هذه الوظيفة، وتسخير العلم وتطبيقاته لغايات أنانية مرَضية في جوهرها.. وهي لا تخل فقط بأنظمة الوجود الاجتماعي الناجع للمخلوقات، حيث يمكنها أن تتفاعل فيما بينها تفاعلاً معافى باستخدام نتائج العلم في تطورها وتطور أنظمة قيمها تطوراً يرتقي به النوع دون تبخيس لأفراده، بل إنها تخلٌ، بالدرجة ذاتها، بالعلاقة مع (الطبيعة الأم) إخلالاً اغتصابياً- إذا جاز التعبير- وتدميرياً كارثياً في نهاية المطاف.

إن جعل الاقتصاد، القائم على قيم المزيد من التملك والربح المشروع وغير المشروع، أساساً لوجود النوع، ومعياراً لقوة أفراده وفئاته ومجتمعاته، وجعل القوة تلك- بالتالي- معياراً لقيمة الكائنات، هو الذي أدى إلى أن تستنزف الفئات القليلة من (الطغم المالية والسلطوية) في العالم موارد المجتمعات وموارد الطبيعة معاً، فتنتهك بذلك حرمة الحياة الناجعة أيما انتهاك، وتوصل البشرية إلى ما نراها قد وصلت إليه- وكل كائن يكاد يختنق حقاً بعزلته وعجزه وشروخه وفقدان يقينياته- حين أحلت "قيم تملك الثروة" محل أي منظومة قيم أخرى، ومركزت ذلك التملك في أيديها مركزة مرَضيّة ومتلفة.

ترى هل سيحل تطور العلم هذه المعضلة في إطار معطيات الثورة التكنوالكترونية الراهنة وتطوراتها الجارفة؟

لا أعتقد أن ذلك سيحدث ما دام العلم ممركزاً في أيدي (الطغم) المهيمنة باعتباره وسيلة للمزيد من جشع التملك الأناني المرَضيّ المشار إليه قبلاً. وبالنسبة للعالم المتخلف، أو لغالبية أفراد النوع، ما فائدة الحصول على المعارف والمعلومات عبر الأجهزة الجديدة التي تبدو- الآن- مذهلة وخارقة، ما دامت هذه المعارف والمعلومات لا يمكن استثمارها فعلياً من قبلهم، وما دامت- هي ذاتها- تتغير وتصبح عتيقة أو قاصرة بسرعة غريبة في مراكز إنتاجها التي تتحكم فيها (الطغم) المذكورة وتحتكرها فيما هي تحولها- أو قد حولتها- أساساً للقوة؟!

إن الوضع الإنساني، الذي هو محصلة تاريخ ليس قصيراً من شذوذ التطور الحضاري الرأسمالي المعاصر، والذي يتنافى مع تحقيق السعادة بالمعنى الذي سبق تبيانه، هو وضع فصامي ويندفع تلقائياً نحو درجة الجنون القصوى ودرجة الدمار القصوى إذا استمر تعزيزه- كما هو الآن- بتعزيز (الطغم) لمواقعها، ولهيمنتها، ولرؤاها الأنانية السادية القاصرة المريضة.

لكن السؤال المضاد يفرض نفسه تلقائياً أيضاً:

-هل يمكن لمثل هذا الشذوذ المهلك أن يستمر، ليس فقط بالاستناد إلى قوانين حركة التاريخ التي بات الجميع تقريباً يرون أنها معطلة، بل أيضاً بقوة (حاجة البقاء) الكامنة في أساس وجود النوع البشري، حيث يمكن الرجوع إلى نظرية (التحدي والاستجابة) التي بنى عليها المرحوم أرنولد توينبي تقديراته بوجوب الانهيار الحتمي للنمط الحضاري الغربي في كتابه (دروس في التاريخ) منذ ثلاثينيات هذا القرن؟

فهل نستمر في (أن نملك أو أن نكون) كما عنون ايريك

فروم أحد أهم كتبه؟! إنه الخيار الصعب الذي يواجه البشـــرية اليوم بقوة لم يكن لها مثيل من قبل، خيـــار لازم لازب.. فمـــا فائدة الإنسان من أن (يربح العالم ويخسر نفسه) وفـــق القـــول الشهير المنسوب للسيد المسيح عليه السلام؟!